الفعلية » لتلك الفلسفة فى مضمار التحليل الأخلاقى . ومعنى هذا أن المعيار الأوحد لاختبار قيمة أية فلسفة إنما هو معرفة النتائج التى توصلنا إليها هذه الفلسفة فى مضمار خبرة الحياة العادية ، بحيث نعرف إلى أى حد تسهم بالفعل فى تبديد مشكلات حياتنا اليومية ، وإلى أى حد تؤدى إلى إلقاء الأضواء على مصاعب وجودنا العملى ، فتجعل من تلك المشكلات أو المصاعب عناصر مترابطة تقبل الحل . وهكذا نرى أن فلسفة ديوى البرجماتية لا تحصر قيمة الفكرة فى « الإشباع » Satisfaction الذى تحققه لنا ، بل فى « القيمة الوظيفية » لتلك الفكرة حين تجىء فتحل الصراع أو الإشكال الذى أريد لها أن تحله ..

النزعة الأداتية

فى مضمار المنطق ونظرية البحث

اهتم ديوى منذ البداية بدراسة الظروف المحيطة بالتفكير والعمليات الذهنية المتضمنة فى النشاط المنطقى ، والشروط الضرورية اللازمة لنجاح عمليات الاستدلال ، فاستطاع أن يخرج من كل هذه الدراسات بحقيقة جوهرية أساسية هى أن الأفكار ، والتصورات ، والنظريات ، ليست سوى « وسائل » أو « أدوات » تنحصر كل قيمتها ، بل كل وظيفتها ، فيما لها من قدرة على اقتيادنا نحو وقائع وخبرات مستقبلة . ومعنى هذا أن دراسة ديوى للطريقة التى يعمل بها « الفكر » حين يواجه بعض المواقف الحاضرة على النحو الناجع الذى يفضى به إلى نتائج مثمرة فى المستقبل ، إنما هى التى أدت به إلى وضع دعائم نظريته الأداتية فى المعرفة والمنطق . وليست النظرية الأداتية سوى محاولة لوضع نظرية فى « الأشكال العامة للتصور والاستدلال » على ضوء تلك الحقيقة العامة التى انكشفت لديوى منذ البداية ألا وهى أن التفكير فى جوهره حل لإشكالات ، وأن المعرفة ليست سوى عملية مواجهة لمواقف تتطلب الحلول . وقد حاول ديوى فى كتابه الضخم المسمى باسم : « المنطق : نظرية البحث » (عام ١٩٣٨)

أن يقيم مذهبه الأداتى على دعامة من التفسير المنطقى، فبسط لنا نظرية مسهبة فى «البحث» Inquiry أراد من ورائها أن يقدم لنا تاريخًا طبيعيا للتفكير، فى ضوء دراسته للظروف الاجتماعية، والبيولوجية، والسيكولوجية، المحيطة بنشاط العقل البشرى. ولكن ديوى لم يقتصر على وصف التاريخ الطبيعى للتفكير، بل هو قد حاول أيضًا أن يقدم لنا تفسيرًا نظريا لوظيفة العقل البشرى، فراح يكشف لنا عن طابعه الأداتى فى مواجهة المواقف، ومضى يشرح لنا طريقته فى البحث ابتداء من إحساسه بالإشكال حتى نجاحه فى حل هذا الإشكال. وهناك مفهومان أساسيان يمثلان المفتاحين الضروريين لفهم كل نظرية ديوى المنطقية، ألا وهما مفهوم «الموقف» ومفهوم «البحث». ولا شك أن مفهوم «الموقف» أكثر جوهرية منطقيا من كل ماعداه، لأن «البحث» لا يتعين (أو يتحدد) إلا بمقتضاه، ولكن «البحث» أسبق عمليا من «الموقف»، نظرًا لأن «المواقف» لاتعرف ولا تواجه إلا من خلال «البحث». وديوى يشرح لنا معنى «الموقف» Situation فيقول: «إننا لانعنى بلفظ «موقف» أى موضوع فردى، أو أية سلسلة من الموضوعات والأحداث. وذلك لأننا لانحصل مطلقًا أية خبرة، ولانكون مطلقًا أية أحكام، عن موضوعات وأحداث منفصلة، بل مرتبطة دائمًا بكل سياق A contextual whole... وليس فى الخبرة الفعلية (أو الواقعية) مطلقًا أى موضوع أو حدث فردى من هذا القبيل، بل إن أى موضوع أو حدث إنما هو دائما جزء خاص، أو مرحلة معينة، أو مظهر معين، فى عالم محيط بنا مختبر من قبلنا، أعنى أنه « موقف » ... »[1] وإذن فإن الموضوعات — فى رأى ديوى — أجزاء داخلة فى «سياق» Context، أو هى مظاهر لذلك العالم المختبر الذى يحيط بنا من كل صوب. ولا تبدأ عملية «البحث» المنطقى، اللهم إلا حين يجد الإنسان نفسه بإزاء

---

(١) Dewey: "Logic : The Theory of Inguiry", New - York, 1938, pp. 66 - 67.

« مواقف » غير محددة indeterminate تتصف فى الوقت نفسه بأنها « باعثة على الشك » أو الارتياب . وتبعًا لذلك فإن « البحث » عملية منطقية يراد من ورائها إحالة مواقف غير محددة وباعثة على الشك إلى مواقف محددة وباعثة على اليقين . وليس الغرض من « البحث » سوى الوصول إلى مرحلة « الاعتقاد » belief ، فى حين أن النتيجة المترتبة على البحث ليست سوى ما اصطلحنا على تسميته باسم « المعرفة » . وهنا قد يبدو أن ديوى يستعير الكثير من بيرس ، ولكن الملاحظ بصفة عامة أن ديوى يصف عملية البحث ومواجهة المواقف فى عبارات مليئة بالتشبيهات البيولوجية ، والتطورية ، والاجتماعية ... إلخ . وخلاصة النظرية الأداتية التى يقدمها لنا ديوى فى مضمار المنطق هى أن « البحث المنطقى يمثل عملية تحويل موجهة منضبطة ، نستطيع عن طريقها أن نحيل موقفًا غير محدد إلى موقف هو من التحديد فى مقوماته وعلاقاته بحيث إنه يملك إحالة عناصر الموقف الأصلى إلى **كل موحد** . »(١) .

ولو شئنا الآن أن نتتبع مراحل أى « بحث » ، لكان فى وسعنا أن نقول إن المرحلة الأولى من مراحل البحث هى الاعتراف بأن الموقف يمثل « مشكلة » . ومعنى هذا أن تحقق المرء من أن الموقف يتطلب البحث هو الخطوة الأولى من خطوات البحث . وهنا يستحيل الموقف اللامتحدد إلى موقف مشكل (أو إشكال) . وصياغة « المشكلة » هى بداية عملية « تحويل الموقف » عن طريق « البحث » . ولا شك أن حسن صياغة المشكلة إنما يضع الباحث على الطريق الصحيح الذى يمكن أن يؤدى إلى حل المشكلة . — ثم تجىء المرحلة الثانية من مراحل البحث ، فيضع الباحث الفروض أو الحلول المحتملة للمشكلة ، وتكون هذه «الفروض» أو «الأفكار» بمثابة تطلعات إلى النتائج المحتملة، وكأنما هى صيغ شرطية لما يمكن أن تكون عليه الحلول الصحيحة. وهنا تكون الوقائع والملاحظات بمثابة « إيحاءات » تشير إلى بعض الأفكار أو توحى ببعض النتائج . وليست

---

(١) Dewey : "Logic : The Theory of Inquiry", pp. 104 - 105.

وظيفة « الأفكار » سوى تقديم بعض « الإيحاءات » لما يحتمل أن تكون عليه العمليات والنتائج . هذا إلى أن « الأفكار » قد توحى بأفكار أخرى ، أو بوقائع وملاحظات أخرى . وتبعًا لذلك فإن « وظيفة » الأفكار هنا إنما تنحصر فى « فائدتها » بوصفها « أدوات » أو « وسائط » لحل المشكلة . وليس « التفكير » أو « الاستدلال العقلى » سوى عملية فحص للأفكار من أجل العمل على التحقق من وجود علاقة بينها وبين الموقف ، وبالتالى من أجل التثبت من قدرتها على تحريك البحث والاتجاه به صوب الحل . ولهذا يقرر ديوى أن « التفكير » هو عبارة عن فحص للمعانى ، عن طريق الرموز والقضايا . ثم تجىء بعد ذلك مرحلة « التجريب » Experiment أو اختبار الأفكار (أو المعانى) ، فيحاول الباحث التحقق من صدق النتيجة التى اقتاده إليها البحث ، عن طريق التأكد من أن « الحل » الذى وصل إليه يزيل بالفعل « الإشكال » الذى انطلق منه . ومعنى هذا أن محك صدق العملية المنطقية [عملية البحث] إنما هو الوصول إلى موقف محدد ، واضح ، موحد ، يكون بمثابة حل للموقف الغامض اللامتحدد ، المفكك ، الذى كان نقطة انطلاق البحث . وهكذا تكون النتيجة « الناجحة » بمثابة تحويل للموقف الإشكالى Problematic إلى موقف واضح ، لا ارتباك فيه ، ولا أثر فيه للصراع أو عدم التوازن .

نظرية ديوى فى « الحق » TRUTH

لقد رأينا عند الحديث عن البرجماتية أن « الحق » هو « التحقق » ، وأن « صدق » الفكرة لا يكاد ينفصل عن « طريقة تحقيقها » . ومن هذه الناحية قد لا يختلف مذهب ديوى فى « الحق » عن مذهب غيره من البرجماتيين ، وإن كان ديوى يربط « الحق » بـ « البحث » فيقرر أن العلاقة بينهما هى علاقة « الحل » بـ « المشكلة » . والواقع أن « الحق » لا يتجلى إلا عبر العلاقة القائمة بين المرحلة الأولى من مراحل البحث (ألا وهى مرحلة الإشكال أو الموقف غير المتحدد) والمرحلة الأخيرة من مراحل البحث (ألا وهى مرحلة الحل أو الموقف